الطفل والعربة

حنون مجيد

هبّ الرجل مذعوراً . . عبر باب الدار الخارجي نحو الفضاء القريب الأبيض المغبش بغبرة ترابية امتدت على مدى بضعة بيوت . . تلفت بهوس عصبي نحو كل جهة ، ثم حين لم يقع بصره على شيء تغشى الغضب في صدره بصورة مؤلمة فعاد أدراجه إلى الداخل بالسرعة نفسها التي خرج بها .

لم يعبأ الرجل بالسحر الذي قطر من سماء صافية تهبط برفق على التخوم النائية المكللة بقمم أشجار النخيل ، ولم يعبأ بأنفاس الصباح الرائعة التي لا يعكرها إلا هذه السحابة الترابية الغبراء والتي لا تني تتذبذب متصاعدة ، حيث لا سبيل لهبابها إلا أن يهيم في الفضاء أو يعود يركد على الأرض أو يحط على الجدران وقمم البيوت والأشجار .

كان الطفل الذي تجاوز سنته الثالثة يدفن نفسه في صدر أمه وهو يرتعش بالبكاء بادياً عليه فزع امتص لونه ، في حين هبت الأم الواقفة وسط الدار تلم طفلها الى صدرها وتضطرب معه دون أن تدرك شيئاً بالتحديد سوى أنه يبكي ويرتجف لسبب ما ، وأن عليها أن تضمه الى روحها وتنشدّ إليه وتطوّقه بذراعيها كلما اندحس في حضنها .

لقد دخل الطفل الدار باكياً مذعوراً مثل حمامة أفلتت تواً من مخالب صقر ، وجعل يتخبط ، وحين وقع بصره على أمه لاذ بها وانشدّ اليها .

« ترى ما الذي حدث له » ؟

هكذا تساءل الأب وهو يعلم أن زوجه تتساءل معه باللوعة نفسها والحيرة ولكن بصمت . ولما استشف ان حنجرتها أصبحت تضيق بالسؤال قال بغضب :

ـ لا بد أنه ابن الجيران ، وهكذا للمرة العاشرة !

ـ منذ زمن وهما متصاحبان . . لعله شيء غير هذا ، قطة مسرعة ، كلب سائب مثلاً .

ردّت الزوج مهدئة بعد فترة من التأمل وضبط الأعصاب .

ـ أترين ذلك حقاً ؟

قال متسائلاً وهو يتلفت نحو طفله الذي كف عن البكاء ، وقبل أن تجيبه :

ـ نعم . إني أرى ذلك ولا علاقة لأحد من الجيران .

كانت قد أمسكت بلطف برأس طفلها ، أبعدته قليلاً عن كتفها وبنظر مشوش غمرت وجهه الذابل المبلّل بالدموع . . أضافت :

ـ لم يحدث أن عاد هكذا من شجار .

ـ ما الذي حدث له إذن ؟

ـ قلت لعله حيوان خطف من أمامه وفزّ عليه .

انقلب الرجل نحو طفله يسأله :

ـ محمد . ولدي من معك ؟ هيا قل . . من الذي أبكاك ؟

لم يجب الطفل ، بل جعل ينشج وهو يرتعد ، الأمر الذي عبّأ الرجل بمشاعر مكتظة لم تكد تجد لها متنفساً إلا في حركة تقود أقدامه الملتهبة إلى الخارج حيث بدأ ثانية يراقب الأشياء .

ولم يعد يخفى على الرجل أنه الآن لا ينظر إلى الأشياء نظرته إليها بالأمس ، وأنه يراقب الأشياء القريبة فقط بنظرة شك مسحورٍ برغبة شديدة في أن يكتشف شيئاً ما ، يقبضَ عليه يحطمه أو يقطع أنفاسه ، ولم يكن أمام الرجل سوى فراغ صامت وغمامة من الغبار نفثت غضبها ولم تعد سوى هالة من هباء تلاشت بنور الصباح .

عاد الرجل يتسقط في ملامح الطفل حركة ، نأمة ، دليلاً على هذا الشيء الذي ينتقل اليه هو نفسه ويعصف به .

حين لم يهتد إلى أي شيء سوى أن ولده قد عصفت به موجة خوف وذعر ، وأنه بدأ يستعيد شيئاً من هدوء واطمئنان ، استكان هو الآخر الى حالة تتراوح بين العزم على استطلاع ما يعذّب ولده وبين اعتبار أنّ هذا انما يحدث لكل الأطفال ، وأن شيئاً ما قد حدث له حقيقة ولكن دون أن يُلحق به ضرراً مادياً من أي نوع ، ولم تمر سوى لحظات حتى انفلت سؤاله :

ـ قل يا ولدي ، يا حبيبي ، من الذي أفزعك ؟

تململ الطفل نحو حجر أمه التي قعدت به الآن وانزوى هناك دون أن يجيب. لم يفطن الرجل لمرأى عيني الطفل وهما تنأيان نحو الباب فعاد يسأل:

ـ محمد . . بابا . . انظر إليّ .

وقاطعته زوجه بأن قالت مستحثّة طفلها على الكلام :

ـ انظر إلى أبيك . . هيا . . أنت شجاع . . ألم تقل ذلك مرات ومرات . . قل يا حبيبي من الذي آذاك ؟

لم يفه الطفل ، بل ظلّ ساهماً يرنو نحو بُعد لم يتبيّناه .

ـ انت لا تقول شيئاً . . أليس كذلك . . هيا قل ولو باشارة ، تعال دُلّنا .

بلطف تناول الرجل يد ابنه وهو يحاول أن يستلّه من حجر أمه فتردد الطفل ثم بسرعة سحب يده وانقلب نحو أمه ولف ذراعيه حول عنقها .

ـ اتركيه حتى يطمئن

وقاطعته زوجه بأن قالت مستحثّة طفلها على الكلام :

ـ أنظر إلى أبيك . . هيا . . أنت شجاع . . ألم تقل ذلك مرات ومرات . . قل يا حبيبي من الذي آذاك ؟

لم يفه الطفل ، بل ظل ساهماً يرنو نحو بُعد لم يتبيّناه .

ـ أنت لا تقول شيئاً . . أليس كذلك . . هيا قل ولو بإشارة ، تعال دُلّنا .

بلطف تناول الرجل يد ابنه وهو يحاول أن يستلّه من حجر أمه فتردد الطفل ثم بسرعة سحب يده وانقلب نحو أمه ولف ذراعيه حول عنقها .

ـ أتركيه حتى يطمئن ويأمن ثم حاولي بطريقة ما أن تتفلتي منه . . دعيه يقف على قدميه إلى أن يأمن تماماً فيكون لنا معه شأن آخر .

جعلت المرأة تطبطب على ظهره وهي تنزعه عنها بلين وتنهض فتعلّق بأذيالها . . تشاغلت عنه وهي تدندن بأغنية لا يُسمع منها إلا لحنها . . عبثت بجهاز راديو صغير ثم حين عثرت على أغنية للأطفال استقرت عليها وركنت الجهاز الى رف صغير على الجدار .

أما الرجل فقد وضع دراجة الطفل على مرأى منه ، وكانت الأم تدور في غرفة كبيرة والطفل يدور معها دون أن تقع عيناه على شيء سواها حتى عثر بدراجته فتوقف إزاءها ساكناً كما لو أنه يراها لأول مرة ، ثم ما لبث أن تقدم ببطء منها. وبنفس عازفة عن أي شيء ـ أو هكذا يبدو ـ انحنى عليها وتشاغل بها . .

انتحى الرجل بزوجه جانباً وهمس لها :

ـ حاولي أن تقلّلي من اهتمام الطفل بما حدث ، اشغليه باي شيء وراقبي نقطة الخوف من بعيد .

ـ لقد انغمر بدراجته . . انظر كيف هو يعالجها أو يتصنّع ذلك .

ـ اتركيه هكذا . . دعيه يغرق في مشكلته هذه ، فلربما ينسى ما حدث له . . دعي عقله الصغير يتعب هنا .

وكان الطفل قد طرح دراجته وبات يتدارك بإحساس شارد تعذّر أحد إطاريها الخلفيين عن الدوران . بعد لحظات والرجل يراقب ولده مراقبة دقيقة قال:

ـ أنظري اليه . . بدأ يدخل في صميم المشكلة . . قبل لحظات كان نظره شارداً ، أما الآن فانه كما ترين ينصب كلياً على دراجته . . هو لا يستطيع بمفرده أن يعيد الى الدراجة حركتها ، ولكن لا تقتربي منه ، كذلك لا تبتعدي عنه كثيراً .

- ولماذا لا نساعده على إصلاحها فلربما يقودها الى الخارج وينسى كل شيء .

- كلا . الذي أراه ان ما يعاني منه اللحظة هو تداخل المشكلتين . . دعيه ينتصر على عطل دراجته ، فان لم يستطع فإنه لن يكف عنها حتى تتلاشى قواه ، وسوف تبقى المشكلة هذه تلاحقه ساعات وساعات حتى ينسى - ربما - مشكلته الأولى ان لم تعد بموضوعها تمثل أمامه من جديد .

وما كان أمام الطفل من سبيل إلى معالجة دراجته . كانت أصابعه الدقيقة تمتد وتمتد وتعبث وتعبث ثم ما تلبث أن تعجز فيظل يدور ويدوروهو يلهث ويشخر ، وحبوب العرق تتراقص فضية على جبهته الصغيرة وتلتم تحت عينيه الطفلتين . وكان الأبوان غير منقطعين عن النظر إليه ومراقبته بصمت حتى مرت لحظات بدأت خلالها صورة الدراجة تهتز تحت عينيه ثم ما لبثت أن غامت وامحت نهائياً واستغرقه النوم . .

ترك الطفل دراجته طريحة إلى جانبه ، وكانت هي الأخرى تنام وفي أعماقها مشكلة لم تحل بعد .

* * *

لم يستسلم الأبوان لنوم طفلهما ، فالخوف الذي عصف به والذي بدا ظاهرياً أنه نام معه امتد اليهما وبدأ يستيقظ الآن . . قالت الأم :

- كل مرة يتعرض فيها لأذى حقيقي يعود الى البيت راكضاً ، يطلب النجدة ، وحتى يراني يعود ثانية إلى الخارج بعزم جديد ، وفي كل مرة ينال أحداً بالأذى يعود إلى البيت لائذاً يطلب الحماية من شر قد يقع عليه ، ولكنه في الحالتين ينسى بسرعة كل شيء . فيعود إلى أقرانه يطفح وجهه بالبشر ونفسه بالسعادة . اما هذه المرة فإنه على خلاف ذلك .

- أعرف هذا جيداً . . الغضب والخوف في كل مرة لا يمسّان إلا طبقة خارجية من نفسه ، أما هذه المرة فإن خوفه قد توغّل نحو أقصى بُعد فيه . . عاد يهتز ويرتعش . . شفتاه تيبّستا . . لونه انخطف كلياً ، وبين لحظات البكاء كانت تعاوده لحظات سكون ذاهل كأنها عودة إلى الوراء ، إلى حيث ما أخافه وبثّ الذعر فيه .

- وكيف سيكون سبيلنا اليه ، الى نفسه الصغيرة وقد دخلها هذا الشيء الكبير ؟

- الآن وفي حالته هذه وهو نائم يكون تقصّي أسباب مشكلته كحالة من يتقصى تنقية الخضروات في الظلام ! نحن لم نعرف للآن ما الذي حدث له ، وغيره لا يمكن أن يكون دليلنا إليه .

- لننتظره حتى يستيقظ .

- ولكن إياك أن تذكّريه بشيء . . دعينا نراقبه من البعيد القريب ، والقريب البعيد كما اتفقنا من قبل . هو نفسه سوف يكشف لنا مشكلته إن كانت ما تزال عالقة بنفسه . سيقودنا إليها بحركة أو إشارة أو كلام . . انتظري ولا تتعجّلي .

- قد يقتضي ذلك زمناً طويلاً ، فقد لا يمثُل الموضوع أمامه إلا بعد فترة طويلة .

- نعم قد لا يمثل ، ولكن الخوف يبقى عالقاً وقد تتلبّسه موضوعات أخرى قد تكشف عن حقيقته .

- أنظر كيف يظلّل الخوف والألم وجهه !

- قد يستيقظ على خوفه . . في هذه الحالة لا بد أن نكون قريبين منه .

تململ الطفل ، فتح عينيه ، نهض بتراخ ، لم يَبْدُ عليه أولاً سوى كسل النوم ، ثم ما لبث أن استيقظ في عينيه تطلع مبعثر غريب ، انتهى على والديه القريبين ، فاستقر لحظة واندفع نحو امه وارتمى في حضنها . . ظل هناك منزوياً والمرأة لا تريد أن تستجيب له استجابة كلية فانقلب ببصره نحو دراجته الساكنة وهو يعطي أمه ظهره دون أن ينفصل عنها . . هناك أخذ يحدق واجماً ثم درج نحوها وهو يستعيد شيئاً من نشاط وبدأ يخوض فيها . .

أوقفها ، حركها إلى الأمام ، شعر بثقل إطارها أرضاً وانغمر في معالجتها .

- أنظر ، إنه يغرق نفسه فيها .

- إنه يبتعد عما يدور في نفسه . . يتمنى لو يستغرقه علاجها زمناً يكفل له نسيان ما حدث .

- إذن سوف يستمر في لعبته وهو يعرف استحالة ذلك .

- في عقل الطفل الكثير من الأحابيل . . الحيلة عنده تبدأ مع الثدي .

- والى متى ؟ دعنا نقطع عليه ألاعيبه . . دعنا نساعده في إصلاح دراجته .

- إذا كان لا بد من هذا فهيا . . .

* * *

ترك الأبـوان الباب مفتوحاً على سعته والدراجـة تقف بإزائـه مثل حصان صغير نفض عن جسده تعباً طارئاً ألمّ به ، في حـين تحامل الطفل على نفسه قريباً منها دون أن يجرؤ عـلى ركوبهـا . . كـانت رغبته في أن يتسلق جسـدها تخبـو كلما تطول نـظره نحـو الساحة التي تقع أمام الدار ، الأمر الذي حمل والده على أن يقوده بيسر ويساعده على ركوبها . .

تسلّق الطفل ظهر دراجته ، ولكن دون أن يضغط على كفّيها بقدميه . . ترك جسده يتكوم عليها في الحين الذي كـانت نفسه فيه أعصى ما تكون عليه . . قاد الرجل الدراجة بيده فـانسحب جسد الطفل عليها وإن أوشك أن يسقط الى الوراء أولاً .

خـارج الدار كـانت الشمس قد نسجت سبيكـة من الفضّـة والنحاس ، والساحة التي تمتدّ كلما تطاول النظر حتى غابة النخيل في البعيد ، تستلقي برخاء تحت أقدام الأطفال الذين حان وقت خروجهم للعب فيها ، بل إن بعض الكبار ممن تضيق نفـوسهم بالبيت ولا تتسع إلا في الشارع والمقهى ، انتفضوا نحو غايـاتهم بنشـاط . . الوقت صيف ؛ أو الصيف ، واليـوم هو الجمعـة ، والساعة لا تتجاوز الخامسة من بعد الـظهر إلا بـدقائق خمس ، والجوّ يَعِدُ بأنفاس رخية قادمة من غاية النخيل :

- هيّا يا محمد ، هيّا .

ضغط محمد بقدمه اليمنى على كفّ دراجته فانسابت الدراجة للأمام في حين تناولت القدم اليسرى الكفّ الثانية فانحدرت هي الأخرى واستمرت الدراجة تنساب بهدوء .

جعلت القدمان تتناوبان الضغط والـدراجة تسـير للأمـام أو تتجه نحو اليمين . وكلما اتجهت قليلاً نحو اليسار أوقف دراجته بعصبية ظاهرة وحرفها نحو اليمين . . بعدئذٍ تدراك نفسـه وقاد دراجته نحو اليمين وانطلق عليها مخلفاً أباه خطوات .

لاحظ الرجل بشيء من الفرح انفتاح طفله على دراجته والنظر إلى بعض الأطفال بلا رهبة ، دون أن يعلّق جانبـاً ما بـدأ يغزو نفسه من الشك كلما طوت الدراجة المسافة نحو اليمـين واليمين فقط . .

ترك الرجل ابنه . . أعطاه ظهره وتقدّم جهة الشمال . . هي ذي البيوت الحجرية تقف إلى جانبه بتواضع أمام الفضـاء النقي إلا مما بدأ يعكره من غبار تثيره أقدام الأطفال اللاهين ، وبعض الرجال المتقاطرين نحو مقهى المدينة في أقصى اليمين . وها هي ذي الساحة الترابية والناس . . ذلك الرجل القعيد الذي يجلس على كرسيه أمام داره كلما انحـدرت الشمس قليلاً وكـأنه يجلس منذ الأزل وبسمة الحياة اللذيذة لا تفارق شفتيه كما لو أنه حكمة عظيمة تجسدت بهيئة رجل تدعو إلى الحياة وتبشّر بها .

« لا شيء يدعو للقلق ، بل إن الأشياء جميعها تبدو رائعة وسليمة ولذيذة » .

هكذا فكر الرجل ونسائم رقيقة بدأت تلعب على الوجوه فتبلغ النفوس .

ترك طفله يبتعد عنه ويغرق في سحائب الغبار التي تلفّه ، بل إنه ترك التحديق في ما يقترب منه ، جعل يطفح في حلم يكتنفه ويرفع عن نفسه كل ما علق بها ، حتى إذا عاد إليه وعيـه توقف والتفت نحو ابنه الذي كان يتلكأ في عودته مخلفاً خيطاً واهناً من الغبار .

أخذ الرجل يدقق في ملامح ابنه المتعبة . . لقد غادره الفرح وعلامات اللهو التي طرزت وجهه قبل قليل .

« هل هو يقترب من نقطة الخوف » ؟

حدث الرجل نفسه بقلق ، وهو يتردد في أن يتقـدم نحوه أو يثبت في مكانه ينتظره . .

جعل الطفـل خطوات دراجتـه تثقل وتكـاد تتوقف . . رفـع الرجل كوعه عن مقدمة عربة تخص الجار الثالث كـانت جاثمـة منذ ساعات أمام ذلك البيت ، ثم حمل جسده عنها لحظة أن عاد إليها صاحبها ودلف إلى داخلها . .

بدأت العربة تزأر وتهتزّ وكانت بمواجهة الدراجة الصغيرة كما لو أن معركة غير عادلة ستنشب بينهما . . وما أن تحركت العربـة قليلاً حتى تعثرت خطوات الطفل فانكفـأ على دراجتـه ثم سقط على الأرض وهو يـطلق صرخـة حادة ثم يلقف نفسـه ويفر بهـا بعيداً . .

اندفع الرجل نحو ابنه الذي خلفته العربة وراءها بعيداً، جمله نحو صدره ، شدّه إليه شداً قوياً وهو يقول :

- إذن هي العـربة . : لا تخف يـا ولـدي ، لا تخف . لا شيء يدعو للخـوف . إنها عربـة جارنـا . . كفى . . كفى . .

في طريق عودته انحنى نحو الدراجة الصغيرة المنكفئة على التراب ، حملها الى جانب صغيره وسرعان ما غيّبهما الباب .

* * *

عصر اليوم التالي قالت المرأة لزوجها :

- إذا كنت قد اتفقت مع الرجل فنستطيع أن نختبره إذا كانت العربة هي السبب أم لا .

أجابها وصورة ولده تعبر ذهنه ببطء ثقيل : فزعه صباح الأمس ، الغمامة التي كدرت جزءاً من فضاء ذلك اليوم ، صرخته وانكفاؤه على الأرض :

- سيكون ذلك الآن وليس بعده . . أخبريني كيف هو في الصباح ؟

- لم يخرج ، بل ظل يتشاغل بلعبه أو يجري خلفي متعلقاً بأذيالي أو يتباكى على حاجات لا يبدو أنّ له رغبة حقيقية بها .

حلقت يد الرجل نحو الطفل . . لعبت على ظهره وعبثت بأصابع رفيقة في شعره ثم تسللت بخفة وصمت نحو يده الصغيرة ، تناولتها مثلما تتناول يد رقيقة عصفوراً صغيراً ، فتبعت معها أولى الخطوات . . بعد خطوة أو خطوتين تململت اليد الصغيرة ليس على حرارة اليد التي تحتضنها وإنما على ارتجاف في الفؤاد وخوار في الساقين . . تململت اليد وتوقفت الخطوات تحت شعاع من نظر قلق وحارّ تسلطه عيون الوالدين . . كاد الطفل يعود على عقبيه نحو أمه التي سرعان ما اندفعت الى الأمام باتجاه الباب المفتوح .

أخرجت الأم رأسها فانغمرت بالنور الذي ما يزال عالقاً في الفضاء ، عبرت الباب ووقفت في الخارج . . تقدم الرجل هو الآخر ولكن ببطء ودون أن يقود ابنه أو يتركه بعيداً خلفه . .

تردد الطفل أولاً ثم حين التفت ووجد الظل خلفه يغمر البيت الذي فرغ من الوالدين حرك نفسه للأمام ، ومثل فأر أخرج رأسه من فتحة الباب .

بسطت الأم ذراعيها نحوه فانقاد نحوها . . سار الرجل بمهل نحو العربة الجاثمة وهو يدعو ابنه أن يتبعه بصوت هادىء فيه بعض الحزم وليس فيه جفاف . .

تردد الطفل أولاً

لم يستمع الطفل لنداء أبيه ، وكلما اقترب الرجل من العربة ، تراجع الطفل نحو أمه أو لاذ بها . . وقبل أن يصل الرجل العربة كرر نداءه وهو يلتفت نصف التفاتة نحوه ، وحين وصل العربة واتكأ عليها جعل الطفل يسحب أمه محاولاً العودة بها إلى الدار . . لم تستجب الأم ، إنما قاومت رغبته ، وأخذت تتراسل مع زوجها حديثاً وجهداً ان يكون مسموعاً .

قالت :

- أنت تتكىء على عربة جارنا الجديد ، أليس كذلك؟

- - بلى .

- إنها عرب جميلة . . إني أرى ذلك .

- إنها عربة جميلة . . أنظري اليها . . هي جديدة كذلك ومريحة

وهل هي تحبّ الأطفال الصغار ؟

- وكيف لا ؟ وفي داخلها بوق يغرّد بصوت جميل ؟

- هي كذلك اذن . فهي حلوة جداً ، . . . اسمعي بوقها . . أليس صوته رائعاً .

انفرج باب البيت الثالث على اليسار عن صاحب العربة . . ابتسم للأب الذي يتكىء على عربته ، ورمى الأم بإشارة التحية من يده ، ثم أعطاها والطفل ظهره وراح يتحدث مع الأب بصوت فيه ألفة وودّ ظاهران للعيان :

- انت ترى أنها عربة جميلة جداً تستطيع أن تركبها .

فتح الباب الأمامي بهدوء ثم التف وفتح الباب المقابل . . أصبحت العربة مثل طائر عظيم فَرَدَ جناحيه . . جلس الأب في المقعد الأمين تاركاً إحدى ساقيه إلى الخارج ، وبصورة وئيدة لملم الرجل الآخر جسده خلف مقود عربته . . زمّر ببوق العربية مرة ، مرتين . . أخرج الأب رأسه باتجاه الزوج وهو يلمح من طرف خفي انفصال الطفل عنها .

- تستطيعين أن تشاهدي العربة . . إنها رائعة . . اسمعي كم صوتها جميل .

رن الصوت ، وتقدمت المرأة خطوة والطفل في مركزه لا يبرحه :

- ستشاهدين كم هي رائعة .

وتقدمت خطوة أخرى وهي ترخي واحدة من يديها

للخلف، ولما استمر متشبثاً في مركزه توقفت هي الأخرى:

ـ سوف نذهب بها إلى تلك الغابة الرائعة.. انظر سنقطف لك منها زهرة كبيرة وملونة.

أومأ الرجل لزوجه أن تتقدم بثبات.. حين وصلت العربة بسطت يديها عليها بحنان ثم التفت حولها وهي تمسح جسدها الكبير وتزيح عنه بعض ما انتشر عليه من غبار، ثم وهي تختزل طريقها نحو ولدها ألقت عليه نظرة اكتشفت من خلالها أنه لم يتزحزح عن مكانه نحو الأمام إلا قليلاً.

سارت العربة.. دارت دورة صغيرة والطفل يراقب بانتباه كل شيء، إنه يرى أباه يطوف في العربة الى جانب صاحبها، الرجل الذي أفزعه صباح الأمس بسرعته المجنونة وكاد يهرسه بعجلات سيارته المرعبة.. إنه يشاهد كذلك ابتسامات عريضة تطفو على شفتيه فيستجيب لها أبوه بود، كما أنه شاهد أمه وهي تقترب من العربة وتمسّد جسدها وربما بعثت فيه نفس الحنان والدفء اللذين تبعثهما في نفسه وهي تمسّد جسده.

عادت العربة بالهدوء نفسه الذي انطلقت به أول الأمر. هبط الرجلان وهما يتحاوران تحت ظلال من الألفة والابتسام.. ودّ لو يكون بينهما الآن، لو ينسى ما حدث له صباح الأمس القريب.. كادت نفسه تنسى لولا هذه الخطوات التي تمتنع عليه. كانت نظراته تشي بنوع من الانكسار الذي يشي هو الآخر بتوزع الرغبة في النفس، وإذ أدرك الأب ذلك فانه أوشك أن يومىء للطفل بالاقتراب وأن يكلمه ويلاطفه، لولا شعوره بأن هذا قد يفسد القليل من اللهفة التي هو عليها الآن ويعيده الى صدمته فأمهله عدة لحظات تقدم بعدها منه.

خطا نحوه والطفل يقف منفرج الساقين، زائغ النظرات، طفلاً كما لو أنه لا يشبه أي طفل.. عاد الطفل فأرسل نظره نحو أمه القريبة.. تخطى الرجل ابنه، والأم تراقب طفلها بحذر.. هتفت وكانت متأخرة عن ولدها خطوتين:

ـ محمد.. تعال، نرجع الى الدار..

لم يستجب الطفل لنداء أمه.. ظل حارناً لا يتقدم أو يتأخر، ولما هتفت مرة أخرى:

ـ محمد.. هيا إلى الدار.

انفجر باكياً بعصبية متشبثاً بمكانه لا يتزحزح عنه.

ـ أنظري، إنه لا يريد أن يعود، كما أنه لا يستطيع أن يتقدم، إنه يريد يداً تدفع به للأمام، ولكنه ما يزال خائفاً.. لا تتقدمي منه، ارتكيه قليلاً...

قال الأب ذلك وهو يخطو نحوه.. وضع يده على فروة رأسه ثم أسبلها نحو يده، ولما تلامست اليدان فتل الصغير يده بتشنج فتجاوزه الأب مرة أخرى نحو العربة، عندئذ تقدمت المرأة من ابنها، جلست إزاء ساقيه المنفرجتين ويداها تحتضنانه.. رفعته للأعلى بين يدين متعلقتين بعنقها وقدمين ترفسان بطنها.. اقتربت به من العربة قليلاً فتشبّث بها.. توقفت ثم وضعته على الأرض حيث حرن في مكانه مرة أخرى كما يحرم حمار صغير:

ـ اتركيه وتقدّمي قبل أن يفسد كل شيء.

تقدمت المرأة وهي تدعوه وتلطّف له اللحاق بها. ولما لاحظت ترجحه انداح صوتها ناعماً رقيقاً:

ـ هيا.. تقدم، هات يدك يا حبيبي.. إنها عربة جميلة ومريحة.

في هذه الأثناء اعتلى الأب صدر العربة.. أمسك بالمقود وهو يرى، في المرآة الجانبية، الامّ تقود يد الطفل، فأطل برأسه من نافذة العربة ودعا:

ـ هيا.. هيا.. أنا في الانتظار.. العربة تتحرّك.. أنظرا.

وفعلاً تحركت العربة قليلاً.. انسابت على الأرض والأم تلحق بها بهوس صبياني مفتعل وتقول: ـ

ـ دعنا نلحق بها.. محمد.. دعنا نلحق.. هيا أسرع.

صارت القدمان الصغيرتان تزحفان نحو الأم والعربة التي توقفت وصارت قريبة الآن. فتحت الأم الباب الخلفي وغمرت نفسها بداخلها تاركة الطفل يلحق بها.

عند فتحة الباب توقف الطفل متلكئاً، غير أنّ يد الأم امتدّت اليه فهفا نحوها وضمته العربة وهي تزحف بخيلاء نحو غابة النخيل.

بهدوء وفرح قالت الأم:

ـ لقد انتهت المشكلة.. أليس كذلك؟

أجاب الأب ببرود: ـ لقد بدأنا الآن.

بغداد